

أجساد راقصة

رواية قصيرة

أحمد عبد الحليم

بَيَضَاءُ فِي الْأَصْلِ

بَيَضَاءُ فِي الْأَصْلِ

أحمد عبد الحليم

أجساد راقصة

رواية قصيرة

منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية
[مشروع بتوقيع أمم للتوثيق والأبحاث]
دفا تر المُنْتدى [٦]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: ٩٦١ ١ ٥٥٣٦٠٤ +
صندوق بريد: ٢٥ - ٥ الغبيري، بيروت - لبنان
مراجعة وتدقيق: صلاح الجيلاني


للمؤتمرات والبحوث
Documentation & Research
www.umam-dr.org


MENA
PRISON
FORUM
منتدى المشرق والمغرب
للشؤون السجنية
www.menaprisonforum.org

إن الآراء الواردة في هذه المَطْبوعة التي كان إنجازها ونشرها
يَدْعَمُ مِنْ «مَعَهْدِ الْعَلَاَقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ (ifa)» - (المُمَوَّل
مِنْ وَزارَةِ الْخَارِجِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ) - إن هذه الآراء تُعَبِّرُ، حَصْرًا، عَنْ
وُجْهَةِ صَاحِبِهَا وَنَاشِرِهَا، وَعَلَيْهِ فَهِيَ لَا تُلْزِمُ، بِأَيِّ شَكْلٍ مِنَ
الْأَشْكَالِ، الْمَعَهْدَ، وَلَا تَعْكِسُ، بِالضَّرُورَةِ، مُقَارَبَتَهُ الْمُؤَسَّسَاتِيَّةَ مِنَ
الْمَسَائِلِ مَوْضُوعِ الْبَحْثِ وَالرَّأْيِ.


Institut für
Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

كُلُّ هذه الخبائثِ السَّجْنُ أيضًا...

فضيلة هذا النص في تصديهِ لـ«التجربة السجنية» أنه لا يتفلسف، بالمعنى المذموم للكلمة، بل يسرد ويصف ويقصّ، وإذا يمضي النصّ في سرده ووصفه وقصّه، وإذا يُصرّ صاحبه، أحمد عبد الحليم، على وصف نصّه بـ«الرواية القصيرة»، يترك المطالع/المطالعة لشأنه فيستولي عليه تارة من الشعور بالضيق ما تضيقه الزنانة على أهلها وأصحابها، وتزكم أنفه، تارة أخرى، رائحة الخبائث التي يسعى السجين إلى «إدارة» التَّخَفُّفِ منها، وقد لا يخلو، عندما يصل الأمر — والأمر هنا هو عين النص — إلى تباضع الأجساد، حقيقةً أو افتراضًا، أن يتلمّس جسده ليتأكّد من أن جسده هو في مأمن ممّا يجري وأن الأمر لا يعنيه!

للكاتب أن يصرّ ما يشاء على أن نصّه «رواية قصيرة»... إصراره يلزمه ولا يلزم القارئ الذي لا يني يتساءل، كلّما أمعن النص في تقليب «الخبائث»، من أين يأتي صاحبه بكل هذه الدقّة في الوصف والتشريح، مشككًا بما يريد صاحب النصّ لنصّه أن يحمل عليه...

«رواية قصيرة» أم شهادة متخيّلة أم غير ذلك، يتابع هذا الدفتر، السادس من دفاتر منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية، التملّي من السجن مذكرًا بأن السجن ليس فكرة تعبر وإنما محنة قلّ من يخرج منها كما ولجها.

بَيَضَاءُ فِي الْأَصْلِ

المسرح

وَقَفَّتِ الْأَجْسَادُ تَتَرَاقِصُ عَلَى الْمَسْرَحِ، آمِلَةً أَنْ تَنَالَ رِضَى الْمُتَفْرِجِينَ، هَكَذَا قَالَ لِي الْعَجُوزُ بَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ تَبَرُّزِهِ، مَكَثَ يَحْكِي عَنْ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى مَلَلْتُ مِنْهُ، يَوْمَ أَنْ خَرَجَ السَّجْنَاءُ لِيُمَثِّلُوا مَسْرَحِيَّةً كُومِيدِيَّةً لِلْبَاشَوَاتِ زَائِرِي السَّجْنِ بِقَصْدِ الْأَطْمِنَانِ عَلَى أَجْسَادِ السَّجْنَاءِ، وَمَا إِنْ اطمأنَّوا عَلَى أَجْسَادِهِمْ، حَتَّى جَلَسُوا يَضْحَكُونَ عَلَيْهَا، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ نَفَرًا وَمِنْ بَيْنِهِمْ ضَبَّاطُ السَّجْنِ، قَعَدُوا وَمِنْ وَرَائِهِمْ وَقُوفٌ رِجَالٌ مِنَ السُّلْطَةِ، بَعْضُهُمْ كَانَتْ تَتَرَبَّعُ قَدَمٌ لَهُمْ عَلَى عَرْشِ أَخْتِهَا، يَفْعَلُونَ هَذَا مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ السِّيَادَةِ أَكْثَرَ، وَالسَّجْنَاءُ ظَلُّوا أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ، يُمَثِّلُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا سَجْنَاءَ، هَكَذَا كَانَتْ الْمَسْرَحِيَّةُ.

قَاطَعْتُ الْحِكَاءَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، لَيْسَ مِنْ عَادَتِنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ كَثِيرًا، أَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أُنْسِيَ رَائِحَةَ بُرَازِهِ الْعَفِنَةِ الَّتِي تَكْوُمْتُ بِجَوَارِنَا، وَهُوَ غَيْرُ مُشَمِّ لَهَا، فَالْإِنْسَانُ عَادَةً لَا يَشْمُ نَفْسَهُ. سَأَلْتُهُ أَيْنَ الْحَارِسُ الْيَوْمَ، لِمَاذَا لَا يُنَادِي، أُحَاوِلُ أَنْ أُسْكِتَهُ فَقَطْ، وَنَجَحْتُ، وَلَكِنْ كَانَ الْحَارِسُ مُتَأَخِّرًا بِالْفِعْلِ، عَلَيْهِ لَا يَأْتِي.

مِنَ الْغَرِيبِ وَبَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ، أَنَّ الْعَجُوزَ مَا زَالِ يَحْكِي، وَأَنَا أَيْضًا مَا

زلت أتكلّم بلسان الإنسان، أقصدُ أني أنطق الحروف كما هي، أنطق التاء والميم والألف والميم، وأقول «تمام» هذه هي اللغة، لا تتغيّر مهما تغيّرت حياة ناطقها. تغيّرت حياتي بالفعل، لو أنّ الحروف واللغة وصوت اللسان يتغيّر مع تغيّر الحياة، لكنتُ أنادي الآن بالهاء والواو، وأنادي بـ«هوّ».. هوّ وليس هُوَ، أقصد نباح الكلاب، ولكن هل كانت حياتي تُشبه حياة الكلاب، هذا ليس إنصافًا للكلاب، هي كانت حياةً مُروّضة... حياةً عقابية، عندما يُروّض المدرّب حيوانه، كي يُقدّما سويًّا عرضًا مسرحيًا وسط تصفيق أيادي الناس في السيرك، نحن كنّا كذلك مع اختلافٍ بسيط، الحيوان لا يفهم كثيرًا، ويُروّض من أجل تقديم العرض، أما أنا فلا أحد يُصَفّق لي.

كنتُ أروّض كُرْهًا، ولكن مع الوقت أصبح طوعًا، حركات بديهيّة أفعّلها تنتمي إلى عالم حياةٍ موجود، عالم العقاب، عالم يُغيّر كلّ شيءٍ عدا اللغة، ولكنّه يتحكّم فيها أيضًا، يُهندسها بالمعنى التكنولوجي، لأنك لا تستطيع أن تُرتب كلّ الحروف لتتطّق كلماتٍ وجُملاً غير التي يريد سماعها رجال سلطة هذا العالم، العبارات التي تُعبّر عن ضجرك واعتراضك، حروفها لا تكتمل أبدًا وإن اُكتملت، تُعاقب حتى تُنادي مرةً أخرى بحروف المَغْفرة والرحمة.

وكأنني أصعد جبلًا لا ينتهي، ولا مفرّ من الصعود. الأيام أصبحت كالرواية الطويلة، ومع كثرة الأوراق، تبعثرت الأحداث مِنّي، ليست الأحداث فقط، بل كلّ شيءٍ. تشقّبتِ الفصول، بدايتها تائهة، مَلُل تكرار الحروف شوّش عقلي.

وَقَفْتُ... أمامي مشهدٌ اشتباكيّ، أجساد رجال العقاب والسجناء، لا

أُعرف مَنْ يضرب مَنْ. العِصِيُّ في الأيدي، والأمهاتُ الزانية والوسخة تتطاير في الهواء خارجةً من الأفواه. قد ثار السجناء، امتنعوا، رفعوا رؤوسهم، تذكّروا أنهم أسماء، نسوا الأرقام، لن يتبرّزوا أمامهم مرةً أخرى، لن يرقصوا على المسرح، حافظوا على استباحة مؤخراتهم، أجسادُ ذويهم أيضًا لن تُستباح بعد الآن. جاء جنودٌ بلباسٍ ميريٍّ مُكتمل، جنودٌ كُثُر، خوذات وعصي أكثر سوادًا، وأجسادهم أكثر مرونة، الاشتباك فُضَّ، أُسرَ السجناء مرةً أخرى، انبطحوا عنوةً، وصارت أجسادهم مداساتٍ للجنود. انتهى الاشتباك، في بالي. أسرع... أسرع، أنا خارجُ الآن، دع الوقت يمرّ، لا تتباطأ بحُجّة الأوراق والإجراءات. كليش يدي، أوصلني سريعًا إلى العربة الزرقاء، أريد أن أطلّ على العالم مرةً أخرى، انتهى دوري في هذا العالم، هي مسرحيّة، صفّقوا لي وأخرجوني، انتهى دوري، ولكنّها كانت بداية جديدة.

انْحَتَّ رقبتي، وكلما فَعَلْتُ أَكْتَشِفُ هَرولةَ بدلتي الزرقاء أكثر، يبدو أنها أكبر وسعًا مما تخيلت، تطايرُ الهواء مع قماشها الهشّ يُثبِت لي ذلك، وللإنصاف الذنبُ ذنبٌ نحافتي. للأسف توقّفتِ العربة ذات الشبايك السلكيّة حابسة الأنفاس، في عزّ النهار، وهذا يعني حريق انصهار الشمس على جلودنا. ظلّ بابها يُحلق لي ولهم طيلة ربع ساعة، وكلّما صمّم على إغلاقه زادت خنقتنا، النون في «خنقتنا» تعني أنني برفقة أكثر من ثلاثين سجينًا في عربة زرقاء ظاهرها وباطنها أسودٌ — كان أزرقًا قبل أن يُلَوّنه التراب العكِر. صوت صفير الحديد يُنادينا، فُتِح الباب... ونزلنا.

تحرّرتُ أيدينا من الحديد، قيل لنا ارتصّوا، ومَشِينا في هذا الصف

الذي رُصَّ. لا مانع لديّ أن أمّي وسخة، ومَن معي من السجناء لا يعارضون أن أمهم زانية، لا نعرف أين اتَّسخت ولا مع مَن زَنَتْ، ولا حتى الشَّام يعرف، هو يصفُنَا من باب الإهانة فقط، يريد أن يقول لنا إن أمهاتنا لم يَقْدِرْنَ على تربيَتنا ولذلك جِئنا هنا لنتربَّى. اكتشفتُ أيضًا أن عنق البدلة قصير، كان عرض كَفِّ السجن أكبر من عرض قفا أشجع واحد فينا، والحقيقة أن ليس فينا شجاع، كلنا زارتنا الرهبة حينها، بانَت تلك الرهبة في رعشة أجسادنا.

لم أَقِفْ كذلك منذ أن غادرتُ الصفَّ الخامس الابتدائيّ، وَجَهِي للحائط، يديّ مُستقيمتان للأعلى، لا أَلْتَفِت، قدماي ثابتتان، مُذنبٌ كعادتي، لا أَتكلَّم مع أحد، ولم أنسَ كتاب المادّة، مُخطئ... ليس وقتك يا عقلي كي تتذكّر طفولتك الجميلة، هي جميلة بالنسبة لما يحدث الآن. بدأتُ في خلع ملابسِي، ليس إلا تنفيذًا لما سمعت، يا لَيْتَنِي أَصَمَّ، بدأنا نَلْتَفِت ونرى بعضنا، عرايا ليس إلّا قطعة الملابس الداخلية السُّفلى التي تُغَطِّي رمز ذكورتنا العزيز. عادةً لا أحب أن أقف عاريًا، ولكن أنا الآن أمام السلطة، فلا حرج من تعريَّتِي. طقطقتُ أذني جيدًا، قالوا مَن يسمع أول اسمين من اسمه يُكمل الاسم إلى آخره ويأتي بكيسه إلى مُخبر التفتيش، الآن تساوت نسبة تركيزي حينما كنت في امتحان الفيزياء في الشهادة الثانوية، نجحتُ في الإجابة على بقيّة اسمي، أما نتيجة امتحان الفيزياء فلا داعي للخِيبات.

كنت مُرتعبًا من فقدان الذاكرة، وحملتُ حقيبتِي الثقيلة بيُسراي، ذاهبًا إلى التفتيش، وقعتُ عيني على شعر فخذي المُبتلّ بالعرق، يبدو أن العرق حمّى جلدي، لا بأس، أفضل من غيري المبتورة يده



وقدماه. كان أمام عيني، سجينٌ ثلاثينيٌّ استطاع أن يحمل كيسه
بفمه كالكلب، كان بارعًا، وزحف يتدحرج مسرعًا نحو مُفتّشه، هم
عاملوه بقسوةٍ، وصراحةٍ معهم الحق كيف يُسجن وجسده ناقص،
هو بذلك يتحدّاهم في خبرتهم بالتحكّم في أجساد الناس، لو
كُنت سجانًا لحبستُ بؤله وبرازه أسبوعًا كاملًا حتى يتعلّم واجب
السجين تجاه سجانِه.

هنا أدركتُ أن الإنسان كلّما خلع ملابسه كلّما ازداد خبرة، ولذا
تراجعت عن أمنيّتي بأن أصبح أصمًّا، لأن في هذه الحالة كانوا
سيُعطونني التعليمات بأيديهم وأرجلهم، وهذا فوق تحمّل جسدي

الهزيل. لو أَنِّي أَنجَمٌ عَلَى الزَّمَنِ لَذَهَبْتُ إِلَى نَوَادِي تَقْوِيَةِ الْجَسَدِ،
وَلَكِنِّي كَالْكَلْبِ، يَنْقُصُنِي بَتَرُ الْيَدِ وَالْقَدَمِ حَتَّى أَزْهَفَ.

لَمْ يَنْسَ حَضْرَةَ الْبَاشَا الْمُفْتَشِّ أَنْ يَقُولَ لِي بَعْضَ الْبَدِيعَاتِ
الْمُسْتَنْكَرَةِ عَنْ ضِيَاعِ مُسْتَقْبَلِي، وَتَعَبِ أَهْلِي، وَمَدَى إِعْجَابِي
بِأَهَانَتِي، وَلَأَنَّنِي شَجَاعٌ كُنْتُ أَحَدُّهُ أَنَّ صَوْتِي ظَلَّ مُنْخَفِضًا وَكُنْتُ
أَتَمْشَى طِيلَةَ الْوَقْتِ عَلَى الرِّصِيفِ، دَاخِلَ الْحَائِطِ كَانَ مَزْدَحِمًا فَلَمْ
أَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ، وَأَنَّ أَحَدَ الْأَشْرَارِ زَقَّنِي وَسَطَ الشَّارِعِ، وَسَطَ
الْجَلِيلِ، وَسَطَ الْعَتَمَةِ، وَرَكِبْتُ عَرَبَتَكُمْ بِالْخَطَا وَجِئْتُ إِلَى هُنَا. عَلَى
الْعُمُومِ لَا دَاعِيَ لِلنَّدَمِ. انْتَهَى التَّفْتِيشُ، بَدَأَتْ فِي اسْتِرْجَاعِ إِنْسَانِيَّتِي
عِنْدَمَا أَدْخَلْتُ سَاقِي الْيَمْنَى فِي سَاقِ الْبَنْطَالِ الْيُمْنَى، أَمَّا كِرَامَتِي
كَانَتْ تَائِهَةً لَوْلَا أَنَّ كُفَّ الْبَدَلَةِ اكْتَمَلَ. يَا لِلْجَمَالِ، غَطِيتُ جَسَدِي
مَرَّةً أُخْرَى، أَدْبِي مَنْعَنِي مِنْ أَنْ أَرْقُصَ.

نَادَى عَلَيْنَا سَجَانٌ آخَرَ، لَا تَسْتَعْجِبْ، هُمْ كَثُرَ، حَتَّى إِنْ لَمْ تَرَهُمْ،
لِيَفْتَحْ لَنَا وَاحِدٌ مِنْ كَثِيرِ بَابِ قَفْصٍ كَبِيرٍ، لَمْ أَرَهُ قَطُّ إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ:
حَدِيقَةِ الْحَيَوَانَاتِ، وَمَوْسَمِ الْمَصَارَعَةِ الْحُرَّةِ فِي بِلَادِ بَائِعَةِ السِّلَاحِ
الْأَمْرِيكِيَّةِ. بِالتَّأَكِيدِ نَحْنُ لَسْنَا مَصَارِعِينَ، لِنَقِفَ انْتِبَاهًا أَمَامَ ضَابِطَيْنِ
أَحَدَهُمَا يَلْبَسُ الْمِيرِي وَصَاحِبُهُ يَرْتَدِي بَنْطَالًا وَقَمِيصًا مَلِكِيًّا. تَعَرَّفْنَا
عَلَى بَعْضِنَا الْبَعْضَ، عَرَفْنَا نَفْسَهُمَا بِنَظَرَاتِهِمَا الْإِحْتِقَارِيَّةِ لَنَا، وَنَحْنُ
بِابْتِسَامَةٍ تَأْمَلُ الشَّفَقَةَ لِأَنَّنَا كَمَا وَصَفْنَا الْمُخْبِرَ بِالْإِيرَادِ الْجَدِيدِ،
الْوَافِدِينَ الْجُدَدِ يَعْنِي، وَلِذَلِكَ تَفَوَّهَ صَاحِبُ الْقَمِيصِ الْمَلِكِيِّ أَمْرًا أَنْ
نُؤْخَذَ إِلَى الْإِيرَادِ.

كشابٌ نحيف، لم يتطرق عقلي إلى التفكير في أي شيء سوى أن أتعرّف على ما سيحدث، وأحاول قدر الإمكان إظهار التودّد. بالفعل بدأ الأمر يتلطّف، حتى لهيب الشمس خفّ من على جلودنا، واستعدّ للرحيل، بينما نحن داخل مبنى ليس ضخماً كبقية المباني، استقبلنا سجينٌ أربعينيٌّ بابتسامة الخير في الشؤون القانونية للسجن، كان يعمل مُسيّرًا، يساعد رجال العقاب في تنظيم عدم معيشتنا أو عدم موتنا، وقفنا مُنتظرين حتى ضمّ علينا وافدون جدد، وسط ملفّات كثيرة، وأسماء تُنطق ويُنادى عليها، وإجراءات فهمتها بعد ذلك بالخبرة، وفُتح لنا باب زناينة ضيقة علينا، دخل أقلّ من نصفنا تقريبًا، تستطيع أن تعدّ خمسة عشر سجينًا، والبقية انتظروا في الخارج.

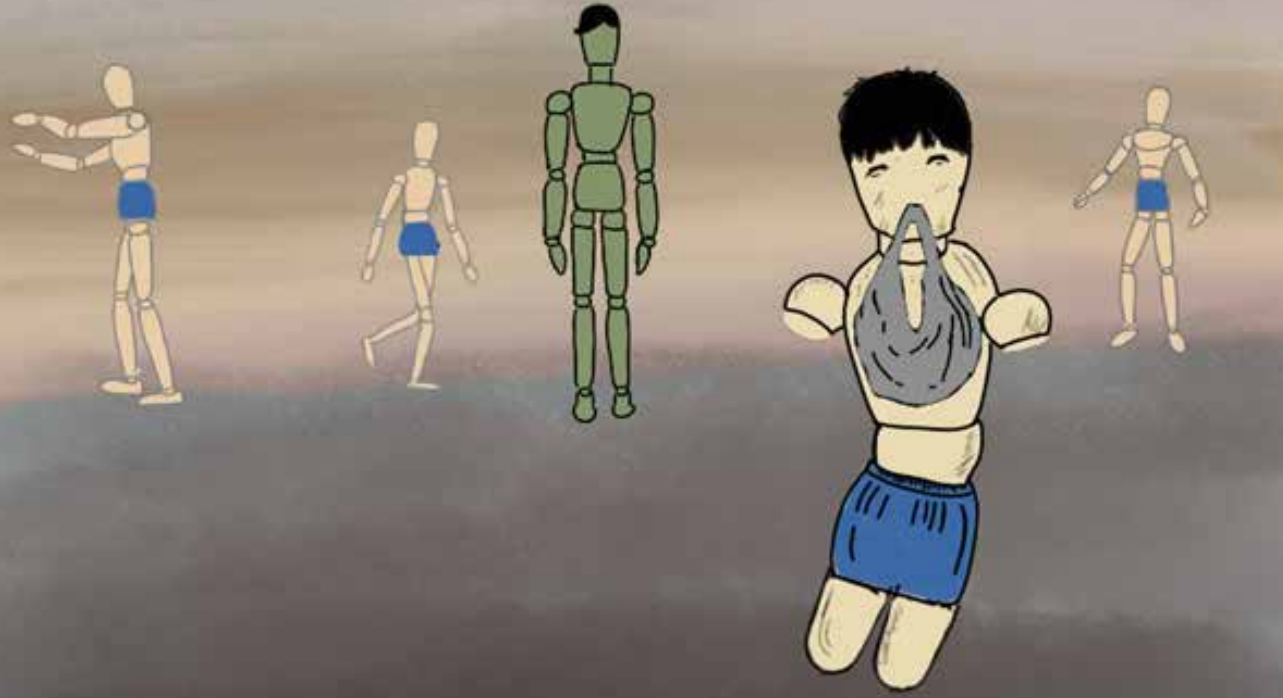
على ما يبدو أنّ كلّ السجناء كانوا يعرفون، وخبرتي الضئيلة في المعرفة تجلّى جهلها على ملامح وجهي التي اندهشت. سريعًا وبعد أن سمعت، وضعت وجهي في الحائط مرّة أخرى، خلعتُ ملابس نصف جسدي الأسفل، البنطال والشورت، وقرصنا جميعًا بهذا الوضع، تذكّرت حديث الضابط في القفص عندما سألنا: حدّ

مِخْزَنُ حَاجَةٍ، أَوْ رَافِعُ حَاجَةٍ؟ عَرَفْتُ مَقْصِدَهُ، لَمْ أَعْرِفْ أَنَّ السَّجْنَاءَ يَحْتَفِظُونَ بِالْمَمْنُوعَاتِ دَاخِلَ فَتْحَةِ شَرْجِهِمْ، وَلِذَا أَنَا هُنَا، كَيْ أَقْرِصَ وَأَبْدَأُ بِالتَّبَرُّزِ عَسَى أَنْ تَنْزِلَ الْأَشْيَاءُ الْمُخْبَأَةُ فِي مَعْدَتِي مِنْ شَرْجِي عَلَى الْأَرْضِ.

هَذِهِ الْمَرَّةَ، مَوْخَرَّتِي عَارِيَّةٌ أَمَامَ السَّجَّانِ الْوَاقِفِ وَرَاءَنَا جَمِيعًا، يَرَانَا وَنَحْنُ نَحَاوِلُ إِخْرَاجَ بَرَاثِنَا، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَا حَرْجَ مِنْ ذَلِكَ، وَخُصُوصًا أَنَّهُ ابْتَعَدَ عَنَّا، وَتَبَاهَى بِعَدَمِ التَّرْكِيزِ مَعَ مَوْخَرَاتِنَا، مَا تَأَكَّدْتُ مِنْهُ أَنَّ بَرَاثِنِي تَجَمَّدَ فِي أَمْعَائِي وَلَنْ يَنْزِلَ أَبَدًا حَتَّى مَعَ مَجِيءِ الطَّبْلِ الْبَلْدِيِّ وَإِنْ عَرَفَ بِتَهَوُّفِنَا مِنْ تَرْبَتِهِ، وَلَا حَلَّ سِوَى أَنْ أَنْهِيَ نَظْرَاتِي لِقَضِيْبِي الْمُدْلَدِ تَحْتِي. فَعَلْتُ ذَلِكَ وَرَفَعْتُ مَلَابِسِي، وَقُلْتُ لَهُ أَنِّي لَا أَحْتَاجُ التَّبَرُّزَ الْآنَ، وَلَيْسَ مَعِيَ شَيْءٌ، لَوْ كَانَ فِي شَرْجِي شَيْءٌ لَنَزَلَ، وَهُوَ بِدَوْرِهِ سَامِحْنِي لِأَنَّهُ صَدَّقْنِي وَخَرَجْتَ، كَانَ أَوَّلَ مَوْقِفٍ شَجَاعٍ مِنِّي، وَكَانَ الْآخِرُ.

مَا الَّذِي حَدَثَ؟ لَا شَيْءٌ، إِجْرَاءٌ اسْتِثْنَائِيٌّ لِإِنْسَانٍ اسْتِثْنَائِيٍّ، لَوْ أَنَّكَ قَارِئٌ مُثَقَّفٌ لَفَهَمْتَ مَعْنَى أَنْ تَكُونَ اسْتِثْنَائِيًّا، وَلَا حَرْجَ فِي الْحَكِي، كَيْ نَتَذَكَّرَ جَمِيعًا إِجْرَاءَاتِ السَّجَّانِ عِنْدَ دُخُولِ السَّجِينِ، تَقْرِيْبًا نِصْفَ سَاعَةٍ، وَالْأَمْرُ انْتَهَى لِلْجَمِيعِ، سَنَذْهَبُ إِلَى زَنْزَانَةٍ أُخْرَى. مِنَ الْغَرِيبِ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ مَنْ تَبَرَّزَ أَنْ يُنْظَفَ مَكَانَ بَرَاثَتِهِ، أَوْ بِلْسَانِهِ، حَسَبَ الْأَمْرِ، يَبْدُو أَنَّ إِجْرَاءَ النِّظَافَةِ يَقُومُ بِهِ سَجِينٌ آخَرٌ، مَا عَلَيْنَا. الْآنَ ذَهَبْنَا إِلَى زَنْزَانَةٍ مُجَاوِرَةٍ، تَمْتَلِكُ نَفْسَ الضِّيقِ. دَخَلْنَا وَعَدَدْنَا خَمْسَةً وَثَلَاثُونَ سَجِينًا، وَسَجِينَانِ كَانَا بِالْدَاخِلِ لِنُصْبِحَ سَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ.

صَوْتُ بَابِ الزَنْزَانَةِ يُغْلِقُ وَصَفِيرُ سَكَّاهَا سَمِعْنَاهُ، حَجْمُ الزَنْزَانَةِ تَسَاوَى



عندما التصقت أجسادنا ببعضها. وسط هذا التّيه، صاح السجينان
الْقُدَامِي، يَحْثُونَا أَنْ نُعَلِّقَ حَقَائِبَنَا عَلَى بَعْضِ الْحَبَالِ الْمَرْبُوطَةِ، وَمَنْ
لَمْ يَتَبَقْ لَهُ حَبْلٌ، يُحَاوِلُ سَنَدَهَا عَلَى الْجِدْرَانِ. الْأَهَمُّ أَنْ نَجْلِسَ
وَنَفْرَشَ عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى لَا نَخْتَنِقَ، أَكْثَرُ بِصِيَاغٍ أَحَدَهُمَا خَوْفًا مِنْ
الْاِخْتِنَاقِ، لَا أَعْرِفُ مَا الْمَانِعُ الْآنَ أَنْ نَخْتَنِقَ. نَوَّهَ السَّجِينَانِ أَنَّ النُّومَ
هُنَا عَلَى جَانِبِ الْجَسَدِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، أَيْ لَا أَحَدٌ يَنَامُ عَلَى ظَهْرِهِ،
حَتَّى تَسَعِ الْأَرْضُ أَجْسَادَنَا. سَمِعْتُ صِيَاحًا لَا أَعْرِفُ مِنْ مَنْ، تَبَعْتُهُ
ضَحَكَاتُ بَعْدَهَا مَلِئَةُ بِرَوَائِحِ جُلُودِنَا السَّمَجَةِ، جُمْلَةُ الصِّيَاغِ تَعْنِي
أَنْ لَا أَحَدٌ يَنَامُ عَلَى بَطْنِهِ أَيْضًا، كَيْ لَا يَأْتِيَ أَحَدٌ وَيُضَاجِعُهُ مِنْ
الخَلْفِ وَهُوَ نَائِمٌ.

كُلُّ شَيْءٍ أَسْوَدَ فِي الزَّنَانَةِ، عَدَا بَصِيصَ مَصْبَاحٍ أَصْفَرَ ضَعِيفَ مُصَوَّبٍ
عَلَى عَيْنِي، وَحَتَّى مَعَ افْتِرَاشِ الْأَجْسَادِ عَلَى جَوَانِبِهَا، تَبَقَّى أَحَدُ
عَشَرَ سَجِينًا وَاقِفًا، لِيُنَبِّهَ أَحَدَ الْقَدَامَى أَنَّهُمْ سَيُبَدَّلُونَ بَعْدَ خَمْسِ
سَاعَاتٍ مَعَ أَحَدِ عَشَرَ مِنَ الْمُفْتَرِشِينَ عَلَى الْأَرْضِ، لِيَتَنَاوَبُوا عَلَى
وَرْدِيَّاتِ النَّوْمِ سَوِيًّا. كُنْتُ مِنَ الْمُفْتَرِشِينَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَظِّي، لَمْ
أَنَمْ خِلَالِ الْخَمْسِ سَاعَاتِ قَبْلَ تَسْلِيمِ وَرْدِيَّتِي، لَا أَعْرِفُ لِمَاذَا لَمْ
أَنَمْ، رُبَّمَا خِفْتُ مِمَّنْ يُجَاوِرُنِي لِيَقْلِبَ مَزَاجَ الْمُضَاجَعَةِ إِلَى الْجَدِّ،
وَلَكِنَّهُ كَانَ نَائِمًا كَالْجُثَّةِ.

البرميل

مع خطواتي، لا شعور، ما زلت لا أعرف، كيف ومتى ولماذا؟
تمنيتُ أن يمرَّ الوقت أكثر من ذلك، ليس لاقتراب الحرية، بل
لأصبح سجيناً قديماً، يعرفني الناس، ليس كلُّ الناس، أمناء السجن
والمُخبرين والسجناء ذوي السلطة فقط، وحتى يتأقلم جسدي على
الأرض وتتعوّد عينايا على سواد القضبان، وأذني تتمزج بألحان
الحديد، ويغرق عقلي في حبِّ السَّجان، أو حُبِّ سجينَةٍ جميلة.
جاءتني فكرة الحبِّ عندما لمحتُ سجينات يتمشّين من بعيد،
أجسادهنَّ داخل عباءاتٍ زرقاءٍ مُهرولة، للأسف ضعف نظري لم
يتمكّن من لمح تفاصيل أجسادهنَّ جيّداً، ربما مع الأشهر القادمة
تزداد سُلطتي وأصل إلى مكان وجودهنَّ بأي حُجّة وأدقّق عيني
فيهنَّ وأحاول أن أبني علاقة حُبِّ مع جميلتهنَّ، حتى إن كانت أكبر
منّي، وإن كانت مُجرمة، ما العيب! كُلُّنا نتداول الخطأ في مراحل
حيواتنا، فما المانع إن كانت هي سرقت أو زنت، كلّها أفعال بين
الخطأ والصواب حسب قِيَمِ الضمير.

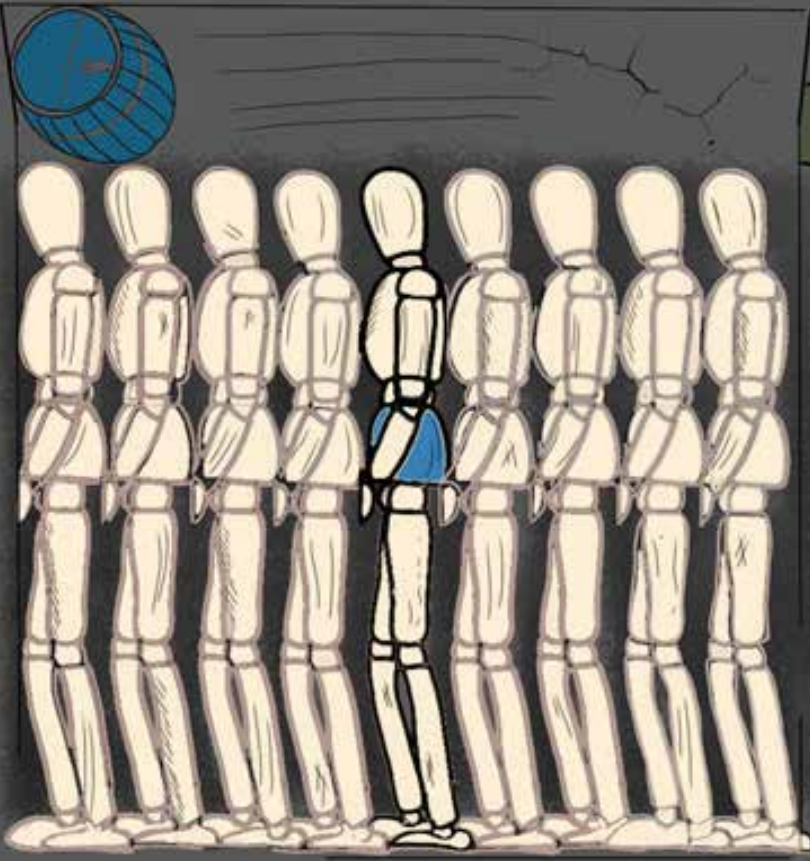
توقّفتُ خطواتي... مع حقيبتني. وسط مساحةٍ مستطيلة حوائطها،
في كلّ ضلعين ١٠ أبواب، داخل كلّ باب تجد زنازنة. وفي الضلعين

الآخرين بابان، بابٌ لدخول دورات المياه، وبابٌ للخروج من العنبر. جيّد، بدأ لحن باب الزنّانة يعتادُ على أذني. فُتِح باب زنّانةٍ منهم، رقم ١٨، دخلتُ على أهلها، لا أعرف منذ متى وهم ماكثون في هذا الكهف الضيّق، كانت طَلَّتْهُمْ عجيبة عليّ، وكأنّي أرى لأول مرّة مخلوقات الله.

استمرّ الحديث دقيقتين بين مُسيّر السجن وبين أهل الكهف، وهم يحاولون إقناعه أنّه لا مكان لي معهم، مُعلّلين بضيق المساحة، أنا لا أعرف كيف يظنّون أنّهم مُتواجدون من الأساس، متأكّد أنّ المساحة ضيقة، وبرغم ذلك نحن أصغر منها، ما المانع الآن أن نُكوّم نحن الإحدى عشر جسداً في ٣ أمتار طويلاً وعرضاً. لم يهتمّ المُسيّر لكلامهم وحقيقةً ولا أنا، كلّ ما أردته أن أنام، بقي لي ١١ يوماً لا تُكمل عيني غفلتها ساعة كاملة، أتمنّى أن أنام فعلاً. بعد أن يئسوا في إقناع المُسيّر، بدأوا في تعريف أنفسهم لي، حديث بسيط بين شابّ نحيل وبين رجال كبار غلب عليهم التعب واليأس.

كحكحة أزوارهم لا تهدأ فغلب عليهم المرض أيضاً، بينما أحاول أن أقتنص ٣٠ سم مربع، أي عُشر المساحة كلها. شعرتُ بتطفلي، كان كلّ واحدٍ منهم ينعم بـ ٣٠ سم كاملاً. والآن جئتُ لأسلب من كلّ واحدٍ منهم ٣ سم، ليُصبح نصيب الفرد منا بين ٢٧ سم إلى ٣٠ سم. أدركتُ أنّ صاحب القدم والأيدي المبتورة أفضل مِنّي، لو كنتُ مكانه لكنت الآن أكثر راحة في تلك المساحة، ولكنّي كنت سأزحف عند التفتيش... ليس وقته.

وضعتُ بعض الأقمشة على الأرض، وعلّقتُ حقيبتني، وكان هناك في



الركن القريب برميلٌ كبير يحوي ماءً. شاؤروا لي وقالوا لي غَسِّل وجهك وتوضَّأ إن لم تكن صليت اليوم. لم أقل لهم أني لم أُصل منذ ١١ يومًا طيلة وجودي في زنزانة الإيراد. ضحكوا عندما سألتهم أين الحمام؟ وسألني أول مَنْ توقَّف عن الضحك منهم: ثقيلٌ أم خفيف؟ ولأنني لَمَّاح فهمتُ أنه يقصد برازًا أم بولًا. بعد أن أجبتُه قال لي: هناك أكياس بلاستيكية، قِف مكانك وتبول فيها. كانت أول مرّة قضيتُي يدخل كيسًا ليسترخ فيه، كانت أحلامه أكبر من ذلك بكثير، ولكنَّ القدر حَكَم عليه. انتهيتُ وربطتُ الكيس ووضعتُه في عُلبةٍ وسط إخوته.

كنتُ بعد المغرب فصلَّيته، وصليتُ العشاء قبل أذانها، لي رخصةٌ بذلك، الرخصة تأتي للاستثنائيين، إن كنتَ شخصاً استثنائياً من قبل، فحدَّثني ماذا فعلت، ولكن ليس الآن فأنا مُكوِّمٌ في غفلةٍ على جانبي، مُمتنٌّ للمصباح ذي الشعاع الأبيض لأن الضَّيَّ الأصفر في الإيراد كاد أن يُعميني. ودائمًا ما أشكر النوم والغفلة، وأتساءل دائمًا عندما أستيقظ، لماذا لا أظل نائمًا للأبد؟ النوم بمفهوم العقل هو موتٌ قصير، لماذا لا أموتُ أطول من ذلك؟

صابونة

أمامي ثمانية أبواب ليست مُكتملة، مقصوصةً من أعلاها ومن أسفلها، لثمانى حمّامات، كلّها ممتلئة. أرى بداخلها من الجسد ما فوق الأعناق وما تحت الرُكَب، عليّ الانتظار حتى تخرج أول عُنقٍ سبقتنى، أمامي نصف ساعة فقط، استلفتُ صابونةً حتى أستحمّ، آمَل ألا ينسَدَ شرّجي هذه المرّة، وأن تُساعدني أمعائي في التخلُّص من الفضلات البائِثة في جسدي منذ أربعة أيام. لقد تعفّن خليطٌ من الخبز والفول والحلاوة والجبنّة، صار برازاً شديداً السواد. قبل البارحة حاولت، عندما أخرجونا من الإيراد لإخراج عفانتِنَا، حاولت لأكثر من ربع ساعة من التفاوض مع أمعائي، وكِدْتُ أفعلها حتى جاء القدر وخَبَطَ عليّ الباب وفتحهُ، فلم يحدث شيء وكان فضلاتي لا تنكشف على الغريب.

فاجأني أحدهم وهو يُمشِطُ شعره المُبلّل باستنكاره رؤيتي لأول مرّة. «يا سيدي وأنا أول مرة أراك دعني آخذ حمّامك الآن... ولنتعرّف بعد أن أصبح نظيفاً مثلك»، هكذا رددتُ على سماجته. وسريعاً دون أمرٍ تحرّرتُ من الأقمشة المُهرولة، أصبحت عاريّاً تماماً، ونزلت للتّقرُّص، قدماي على حافّة مربّع الحوض الأرضي، عتلتُ بأمعائي

أكثر وأكثر، هذه آخر فرصة لي. لن أستطيع أن أنتظر يوماً آخر دون التبرُّز، وكلَّما مرَّ الوقت ألَّعن نفسي مرَّةً، وجسدي مرَّةً، سببتُ الطعام الذي أكلته أكثر من مرَّةً، حتى بدأ برازي ينزل فتاتاً في بلاعة الأرض، شعرت بالارتياح وأنَّ هناك مسعى للتفاؤل.

لا أعرف كم تبقى من الوقت، وقفتُ فظهرَ عنقي لمن ينتظرني، ناداني بالعجلة، جاوبته: أبلُّ جسدي على السريع وتأتي أنت. في سرِّي امتننتُ للرجل الذي وهبني الصابونة، يبدو أنني امتلكُ مهارة جديدة وهي استغلال الفرص، لأنني صَبَّنتُ جسدي كاملاً، حتى بقايا البراز بين فخذي وشرجي أخرجته بيدي. مع هذا الفرح، كانت تتتابني فزعاتُ الخوف عندما أُطبق جفنيَّ من الصابون، لأنِّي أخاف الحمامات الغريبة ذات الأسقف العالية، أخاف الظلام مع صوت المياه، أخشاها أكثر من حرقان عيني. سريعاً ارتديتُ ملابسِي دون منشفة لجسدي وخرجتُ مع صفَّارةٍ ونداءٍ يُوحى أن وقتَ التريُّض انتهى.

السجين المُسيَّر، رأيته واقفاً، يُمسك بيده عصاه ويبدأ بهشَّ السجناء إلى جحورها، من الجميل تنظيم الإنسان لأخيه الإنسان، نعم أقول إنساناً وسيِّد الإنسان، لقد نظَّفتُ نفسي وأخرجتُ برازي المُعلَّق بيدي، وتحمَّمتُ لمدة عشر دقائق كاملة، كلُّ هذا يدل على إنسانيَّتي. وأنا لست مُتعباً لأخي الإنسان، قد دخلت زنزانتي بهدوء. لم أتهنَّ بمشاهدة هرولة الناس إلى زنازينهم، لعلِّي أجد الرجل الذي اكتشف أنَّ سجين جديد.

الشيطان

من خلفي، صمّت باب الزنّانة بعد أن أغلقه صاحب العصا، على ما يبدو أن جميع الخراف قد هُشُّوا إلى الحبس دون مُشكلة، بالطبع يحدث مشاكل. سمعت مَنْ معي، وقد تكوّم على جنبه وحكى عن يومٍ ما، في ساعةٍ ما، حدث ضجيج، ومِن وراء أسلاك الأبواب الصغيرة اجتمعوا، ورأوا عصيان الشيطان، يقولون أنّه أبى أن تهوى العصا على جسده، عندئذٍ نادى المُسير على السجّان ليُخبره أن الشيطان يعترض على حبس نفسه سريعًا.

أخذه السّجان إلى الخارج، ليلقى عقابه، ويُهّان إن تبقّى عنده شعورُ الإهانة، وبدلًا من عصا على جسده، أصبحتِ عَصِيًّا وكفوفًا على جسده ووجهه وقفاه، أخذ عقابه يومين من الزمان، وعاد مرةً أخرى إلى وظيفته وهي سجين، وعامل نظافة في فسحته.

أكمل وقال: دخل الشيطان السّجن لأنّه اغتصب أخته وقتلها، ويقضي ٢٥ عامًا لزنّاه محارمه، ولذلك يشمئزّه من حوله، وحتى إن لم يفعل فاحتماليّة اضطراده موجودةٌ أيضًا لأنّه قبيح الشكل. عن نفسي بدأتُ أخاف النظر إليه، رأيتّه كثيرًا فيما بعد وهو يقف في

منتصف البلاط يجمع أكياس البراز والبَوْل وفضلات الطعام ليُخرجها إلى صناديق كبيرة بالخارج، دائماً يرتدي حَمَّالَتين زرقاوين، ووجهه مُجَعَّدٌ بسواد، وما تَبَقَّى من أسنانه مُصْفَرٌّ، وأنفه كبيرة، واحمرار جفنيه يتساقط بدمٍ ناشف، وآذانه صغيرة وملفوفة بالعرض، وشعره خَشِنٌ قصير، بالفعل خَلَقَتْه قبيحة جداً. لو كنت مكانه لتَصَرَّفْتُ أَفْضَلَ من ذلك، لا أقصد عند الاغتصاب أو لملمة الأكياس، بل عند الضرب بالعصا. الضرب بالعصا من سجينٍ مثلي أخَفُّ من الضرب المُبرح من السلطة، هي أخَفُّ ولكن للحق، هي أكثر إهانة. فهي السلطة من حَقُّها أن تضرب، ولكن إن فَكَّرْتَ جيداً فالمسِيرُ مُعَيَّنٌ من السلطة، بل هي مَنْ أعطته العصا، إذاً هو سلطة أصغر. مقياس إهانة الشيطان هنا مُحِيرَّة.

اختلفتِ الأقاويل في مَنْ لَقَّبَهُ بالشيطان، ويُقال إنَّه منذ صغره لُقِّبَ بذلك، تخيَّل عندما تبدأ حاسَّة السمع عندك في العمل، تعرف أنَّك شيطان، على العموم هو يعيش حياته كُلِّها وكأنَّه في شهر رمضان، يُقال أنَّ الشياطين تُصَفَّد في رمضان، والشيطان هُنا مُصَفَّدٌ لِمُدَّة ثلاثمائة شهر بلُغة الرياضيات.

مع مرور الوقت، هل أُمسِك العصا، وأهشُّ السجناء قريباً، أحتاج وقتاً يُعطيني الأقدميَّة، لا أحد يعرفني الآن، أخاف أن تهوى العصا عليّ. أين أُمي؟ أحنُّ إلى عصا أُمي، وحضن أُمي. وهي بالتأكيد تحنُّ إلى تقبيل وجهي — وجهي الذي لم أره منذ فترة، بِشوش وأبيض، وعيناه عَسَلِيَّتَان، وأنفي مستقيم وليس ملفوفاً كالشَّقراوات، وأذني متوسِّطة، وأسناني بيضاء بها فراغات بسيطة. هل تَغَيَّر مِنِّي شيء، وخصوصاً بعد أن قُصِّوا لي شعري.. أو ترهَّل خطوطاً على خَدِّي؟



يدي على خدّي، هل سأخرج قبيحًا كالشيطان، أحتاج أن أرى نفسي، المرأة تهمني، هل يريد الشيطان مرآة ليرى نفسه؟ أظنّ أنّه يكره ذلك، هل كانت تُناديه أخته بالشيطان؟ جاء في بالي أنّ اغتصابه لها نتيجة أنّ كلّ بنات حواء غير محارمه لا ترصّ أن تنظر إليه، أو تُعجب به، أو تسمح له أن يُقيم علاقةً معها وحتى إن دفع لها مال قارون ومُلك نمرود وأنهار فرعون عندما كانت تجري من تحت أقدامه قبل أن تبتلعه. الجمال شيءٌ مُفيد للإنسان، يُميّزه في حياته، جمال وجه الرجل كجمال جسد المرأة، كلاهما سلطة ونفوذ. الوجه يُعبّر عن الروح، والجسد يُعبّر عن الجسد.

أريد أن أرى وجهي وأمِّي، السجَّان لا يمنعني من رؤية أمِّي، فهي في خلال أيامٍ ستأتي. أما وجهي، فهو لا يريدُنا أن نتقابل، يريدنا ألا نتذكَّر بعضنا البعض، على العموم إن نسيْتُ شكلي ستذكرني أمِّي، سأرى وجهي في عينيها، أو حتى بإمكانني رؤيتي في عين أيِّ سجين معي الآن. لا... أمِّي ستزورني بالنهار، ستكون ملامحي أفضل في عينيها.

الآن نسيْتُ، عجلة الأيام دارت، لا أعدُّ دورانها، أوقاتٌ تدور ببُطءٍ وأوقاتٌ لا، تعودت على طريقة الحياة، أصبح جسدي أكثر طَوْعًا، وأمسى عقلي يفكر كثيرًا، حياتي في مساحتي الصغيرة، أردت التخلُّص منها كثيرًا، ونجحت. حياتي ضيقة، لا أستطيع التوسُّع في مساحتي، حفظتُ أسماء رجال السُّلطة، هنا يُنادونهم بأسمائهم، ليس لهم أرقامٌ مثلنا.

الموت

هذا اليوم الثالث... «كُفَّ عن التخطيط وَنَفَّذَ، الأمر بسيط، افعل مثلما سمعتَ من الآخرين كيف فعلوا»، هُمْ فَكُّوا شريط القماش اللاصق على أطراف الغطاء، وربطوه في أي شيء أعلى من الجسد وثابت في الحائط، ربما ربطوه بين حديد هذا الشباك الصغير... «افعلها يا جبان»، قلتُ لِنفسي.

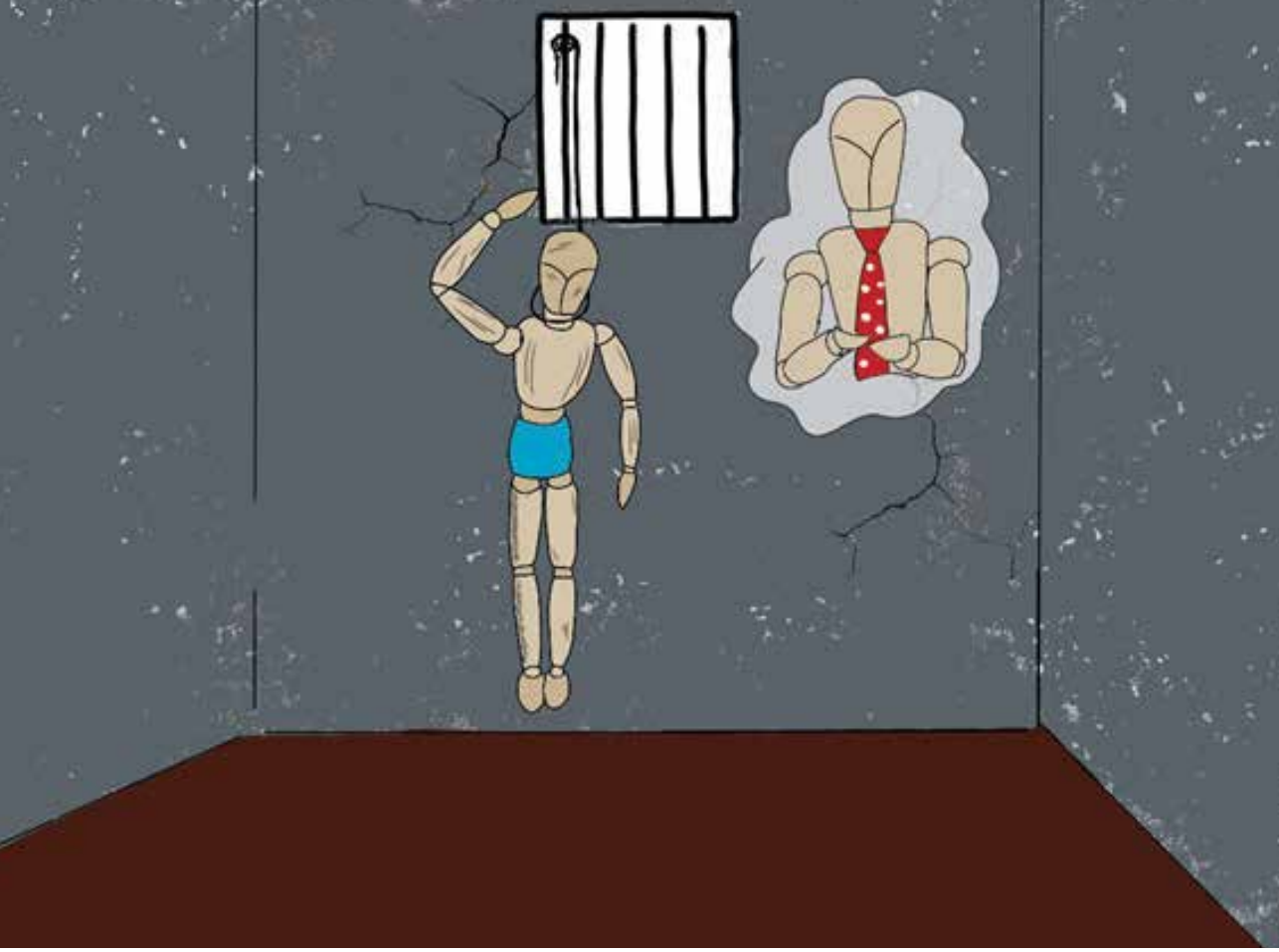
اليوم الخامس، بقيَ لي يومان فقط، اليوم السابع سأخرج من زنزانة التأديب الانفرادية وأعاود زنزانتي وسط أجساد السجناء. ربما هُمْ فَرَحُون الآن لأنني تركتُ لهم ٣٠ سم يسيحون فيه أسبوعاً كاملاً، هذا يعني أن موتي سيُريحهم، تخيّل كلما مات مِنّا أحدٌ أراح الآخر، ولكنّ تلك الراحة مؤقتة ومسلوبة، ما يُدريهم أن السلطة لا تأتي لهم بأجسادٍ جديدة وأكثر سمناً مِمَّن ماتوا ليُضيّقوا عليهم المساحة من جديد، لكنّ الموت راحة أبدية، خصوصاً أننا مظلومون، فسيدخلنا الله الجنة، لن يرضى لنا الله العذاب مرّتين، لأنني الآن بالمنطق الديني إنسانٌ مظلوم، وبالإنساني حيوانٌ مظلوم، وبمنطق السلطة جسدٌ مُستباح، هذا يعني أن الموت شجاعةٌ يتبعها راحة، ولكن ماذا لو فشلْتُ في الموت.

خطرت لي قصة مَنْ فشل قبلي، أخذوه وعاقبوه عقابًا مُضاعفًا، وضعوه في عنبرٍ آخر، في زنزانة مُمتلئة مع سجناء كثر، ووصُّوا عليه نوبتجي هذه الزنزانة أن يُريَه مذاق الويل، وألا يُريَه النوم، فكان يُضرب من السجناء، ويعمل مكانهم في النظافة، وكانت أعينهم تُراقبه حتى إن حاول التخلُّص من حياته مَنَعوه.

منطق السلطة هنا أنَّها لا تسمح بالعيش ولا تسمح بالموت أيضًا، هي تريد الانضباط الحيواني للإنسان، أي أن يعيش عيشة الحيوان بضمير الإنسان، وهذه فوق طاقتي، ولكنَّ حَسَمَ أمر شعور الجسد صعب.

لم أكن في موقعي هذا لو أنَّ صاحب العصا لم ينعت أُمِّي بالزانية، ويُسمِّيني بـ«الخَوْل»، ردَّدها لي أكثر من مرَّة، ومع كلِّ مرَّة كان يدفعني بعصاه دون سبب. في مرَّة من المرات وقبل غلق العنبر، فتح الباب علينا ليتأكَّد من تعداد الأجساد، ليطمئنَّ أن لا أحد هرب ولا أحد مات، لم أنتبه له، ولم أقل رقمي في دوري، استَقَصَدني بعد ذلك. تخيَّل أني لا أبالي له عند التأكَّد من بقائنا داخل السجن، ومن وقتها عندما يراني ينعتني بـ«الخَوْل». في مرَّة دفعته لبيتعد عني، وبعد أخذٍ وردٍّ جاء رجل السلطة وحكَّم أني غير مُنضبط، ويجب عليَّ الذهاب أسبوعًا كاملاً إلى زنزانة التأديب.

«لن أفشل»، قلت. سأتفاءل بالموت لأجده، ما تبقي لي سوى ساعات الليل، وسيأتي صباح اليوم الثامن أيُّ رجلٍ منهم ليأخذني من هنا، لن تتكرَّر هذه الفرصة. أخذتُ بالعزيمة، وبدأتُ بفكِّ سير طرف القماش، هو قوي وطويل، يُمكنني الآن ربطه وتثبيتته



بسهولة. بدأت أربط عقدةً وأقيس دائرةً صغيرة الحجم تليق بعُنقي، توقَّفتُ لأتذكَّر صديقي الذي كان يلفُّ لي ربطة العنق على بدلتي يوم فرح أخي منذ ثلاث سنوات، من بعدها لم أَلَفَّ شيئاً عليه.

سرحتُ أيضًا. سيدخل عليَّ رجل السلطة صباحًا ليلقى الحبل ملفوفًا على عُنقي، ولأن جسدي الآن لم يعد ملغًا للسلطة، فلن يَجَرَّنِي ولن يضربني، سيجري على سُلطته ليُخبرها، ويأتون جميعهم مسرعين ليروني، يُحاولون هزِّي حتى أفيق، وأنا سأكون في عالمٍ آخر، جسدي هنا انتهى دوره، انتقل هنا من سلطتهم إلى سلطة

جهة التحقيق الأولى. والغريب هنا أن جسدي يتنقل من سلطة إلى سلطة حتى بعد موتي، سيتصلون بهم يقولون لهم الجسد رقم ٧٣٤ مات، ليأتوا هم بدورهم ليفحصوا الجسد، ويكتبوا تقريراً أني متٌ مُنتحراً وهذا صحيح، لم أُعذَّب من قِبَل السلطة وهذه هي المشكلة التي جعلتني أنهي حياة جسدي، هم يُعذَّبون بمقدار الحياة الميتة. سيُغلَقون جميع العنابر، لن تخرج النساء اليوم ولا الرجال، ستبقى فضلاتهم في بطونهم، ولن يستحموا، تخيل أن شاباً ضائع فتاة طيلة ليله في حُلمه واستمَنَى وينتظر حتى يخرج للاغتسال، فموتي يُخرَّب عليه نظافته ويُبقيه نجساً.

بعد أن تنتهي إجراءات دفن جسدي سيَتصلون بأُمِّي ويقولون لها على مكان استلام جسد ابنها لدَفنه. بالطَّبْع ستبكي وتُجْعَر، مات شابها الجميل الذي كان يرى وجهه في مرايا عَيْنِها كُلَّ أسبوعين، هذا أيضاً سَأفْتقده، حُضنها كان دافئاً وصادقاً وكأنه يأخذ همومي ويمشي، ولكنَّ الهموم كانت تتجدَّد تلقائياً، لذا هي ستتعَب مرةً أخيرة، يوم استلام أعضائي التي لا تتنَفَّس، يوم دفني بالكاد سيكون شاقاً، ولكنَّه يومٌ واحد. التخلُّص من حركة هذا الجسد سيُريح جسد أُمِّي، حرامٌ عليَّ أن يأتيني جسدها الشايع المُكسَّر، وينتظرنني بالساعات مرَّتين في الشهر.

لم أودَّع راقصتي الفاتنة، هي صاحبة فضلٍ عليَّ، كانت تأتيني دون تكلف. بدأت التخاريف تُشوِّش عقلي. الآن... يجب أن أدعو الله، وأقرأ ما يغفر لي عند اللقاء، هذا اعتقادي، أفضل لي من ثدي الفاتنة البارز، هي آخر اللحظات، كُلُّ شيء جاهز الآن، حتى رقبتني النحيفة، تمكَّن منها الحبل جيداً وانتهى الأمر.

الختم

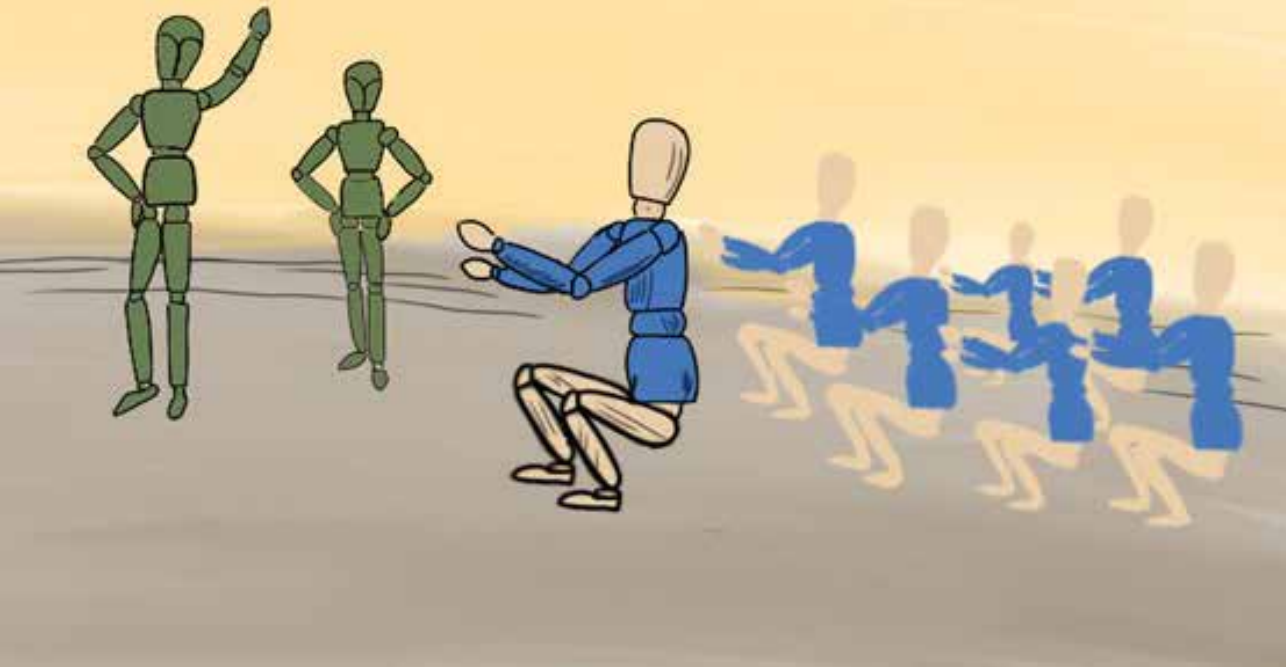
لم أوعَ عليها، نازية الألمان ضد اليهود، أقصد أنني تذكّرتها في أفلام هوليوود، كانوا يأمرّونهم بالركض في صفوفٍ طويلة وعريضة، حتى يتمّ توزيعهم، جزء يذهب إلى الحرق، وجزءٌ للمساعدة في حرق الجزء الذي ذهب، وجزءٌ للعمل حتى يأتي دورهم في الحرق. لا مانع عندي في الركض... لديّ مانع في الحرق بلا شك.

كنت في منتصف صفّ عريض، نلبس جميعًا البدل الزرقاء، يمكننا الوقوف والانتظار، لكن هم يريدون أن نبقي راكضين أمامهم، حتى لا تنظر رؤوسهم إلينا بالتساوي عندما يأمرّوننا، لأننا استثنائيون، ارتكبنا الأخطاء فجئنا إلى هنا كوننا فئةً ضارّةً لا تستحق العيش بالخارج ولا الموت بالداخل، نبقي للتنفّس، تَبًّا للطعام الذي يُبقينا نتنفّس. بدأت أفكّر ألا أأكل هذا الطعام مرةً أخرى، يُمكنني الموت إن فعلتُ هذا، أقصد يُمكنني الموت مرةً أخرى، خِطّةٌ جيدة، وما أفضل من خِطّةٍ تجعلني خارج الأسوار، هل يُمكنني الهرب؟ هذا مُستحيل، صوت عساكر البُرج يصيح طيلة الليل، مراقبةٌ شديدة، لماذا لا يذهب هذا العسكري إلى بيته لينام، هل أحد يُراقبه؟ أظنُّ أنه يريد الهرب ولا يستطيع مثلي، لو كنتُ مكانه لهربت.

سجين. هكذا خُتم على رسغي الأيمن. لا أحتاج لهذه التذكيرة المكتوبة. هو يعرف في أي شيء يُفكر السجين، لذلك يُذكره أنه لا مفر من السلطة، يقول أنت دائماً سجين تحت المراقبة، لن تستطيع أن تلبس ثياباً مختلفة، وتتنكر وتهرب خلال زيارتك، وأنا أعرف هذا، كنت أفكر في ذلك من باب تسلية الوقت حتى يعدونا ويدخل إلى القفص. تذكرت أيضاً أنني رأيت القفص في معسكرات النازية بالإضافة إلى حديقة الحيوان والمصارعة الحرة، وهذا سيُحيّرني بين تصنيفي، من المؤكد أنني لست مُصارعاً!

ما أجمل القفص، تقف فيه أمي، الآن أراها ولا تراني، وعندما رأيتني ضمتني إلى حضنها، سألتني عني، وجلسنا على مقعد ضيق لكثرة الأجساد، المهم أننا جلسنا. القفص في جوانبه الأربعة مقاعد، ومن لم يلحق مكاناً يتربع على الأرض، وبين كل هذا يتسكّع من حولنا خمسة رجال للسلطة بحد أدنى للعدد، منهم من يريد سماع ما نقول، ومنهم من يُحلق النظر في أجساد النساء الشابات، ومنهم من هو رقيب للأخلاق.

أجبت أمي أنني بخير، وأكثر من خيرها، عندما رأيت كيساً بجانبها به طعام وملابس، حملته لي وحكت في أسى أن رجال التفتيش أخذوا منها الفاكهة، وبعض الملابس بحجة أن الفاكهة ممنوعة الدخول، والملابس بها علامة التصنيع، يبدو أن تذوق الفاكهة ممنوع للاستثنائيين، تخاف السلطة أن نأكل مثلها، وأن تمتلئ أجسادنا بالطعام الذي يمتلئ به أجسادهم، نأكل الطعام الذي يجعلنا نتنفّس، أما الاستمتاع والتذوق فليس وقته.



كُرِّرتُ أمِّي سؤالها عن حالي ومعيشتي كثيراً وأنا أكرّر الإجابة المعتادة، بينما تزوغ عيني بين الكلمة والكلمة وتستقرُّ على أجساد الشابات، لم أر النساء منذ فترة كبيرة، حاجتي البيولوجية قادت عيني إلى مفاتنهنَّ. ضجَّ صراخ داخل القفص، وقفنا لنرى، سُجِبَ سجين من جانب زوجته بالقوة، سبَّه الضابط كثيراً، جُرَّ إلى الخارج بواسطة اثنين من رجال التفتيش، أحدهما سكَّعه على وجهه. صوت صراخ المرأة ما زال يُعبِّر عن تعاطفها مع زوجها، بسبب ذلك انتهت الزيارة، ودَّعْتُ أمِّي. عندما رأيتُ دموعها تذكرتُ أن أرى وجهي في مرايا عينيَّها، لم أرني جيداً، في عقل بالي تُعوّض المرة القادمة.

مساءً، تربّعنا جميعاً، ليحكى لنا سبب صراخ اليوم في القفص، كان واحداً مِنّا يظنُّ أنَّ السجين قَبْلَ زوجته، أو لاصق جسدها بطريقة حميمية.

لكن قال مَنْ كان جالساً بجانبه، أنَّه عرف أنَّ زوجته كانت تبكي، وسبب البكاء أنها شاورَتْ له على أحد رجال التفتيش الذي تعاطف مع جمالها وأخذ يُغازلها حتى وصل حاله إلى حَكٍّ يده على جسدها تحديداً في فخذها، فبعدتْ عنه مُنتبهة، فقلّب لها الطعام على الأرض، فلملمته وظلّت تبكي، بسبب بكائها، زوجها الآن في زنزانة التأديب. كانت تستطيع أن تبكي في البيت، وألا يسوء حال زوجها، ولكن هي لا تعرف أن لا حقَّ لزوجها هنا، لا تراه وهو يركض، ولا تراه وهو يقضي حاجته في الكيس، ولا ترى هَشَّتَه بواسطة عصا السجين كلَّ يوم. مِن حسن حظي أنَّ أختي لا تأتي لزيارتي، ربما يُعجب بها أحد المُفتشين، وإن بكث... ذهبتُ أنا إلى التأديب. هو يتحرّش وهي تبكي وأذهب أنا إلى التأديب. «قِسْمَةُ ضِيَرَى»، أجسادُ ذوينَا مُستباحة للسلطة أيضاً، نحن للتحكّم وهُم للشهوة.

الفلكة

تَمَّ تجميع عددٍ كبير من السجناء، حوالي خمسين سجينًا، ومن حسن حظِّي كنتُ من بينهم، ليس للحرق، نحن مُستثنون نعم، ولكن من الحياة ومن الموت. اليهود كانوا من الحياة فقط، ولذلك حُرق عددٌ كبير منهم. هناك عرضٌ سينمائي يجب أن نراه، ركضنا كالعادة، لنرى جميعًا مشهدًا لن تراه أنت إلا إذا كنت من أبناء العصور الوسطى في أوروبا، أو شاهدت أفلامًا تتحدَّث عن العقاب في العصور الوسطى، أو كنت سجينًا من قَبْل، وهذا احتمالٌ قوي... أو ستكون سجينًا من بعد وهذه بُشرى مِنِّي!

عندما حدث ضجيجُ البارحة، عرفنا أنَّ السلطة تدخلت وفكَّت شجار السجناء معًا دون تفاصيل عن هذا الشجار، كان في علمنا أنَّه حدثٌ يتكرر، وينتهي بعقاب السجناء بأسبوع من التأديب على بعض الكفوف التي تختم الوجه والقفا، وحرمان من الزيارات، أمَّا الآن فالعقاب تاريخيٌّ على الطراز الفرنسي القديم: اثنان مُقلَّكان، أيُّ مربوطان على عمودٍ إسمنتيٍّ رماديٍّ صلب، عرايا عدا القطعة الداخلية السُّفلى من الأقمشة، الأولُ السجين صاحب العصا الذي يهشُّ الخراف، والثاني شابٌّ لا أعرفه يبدو ثلاثينيًّا، في وسط حشدٍ من

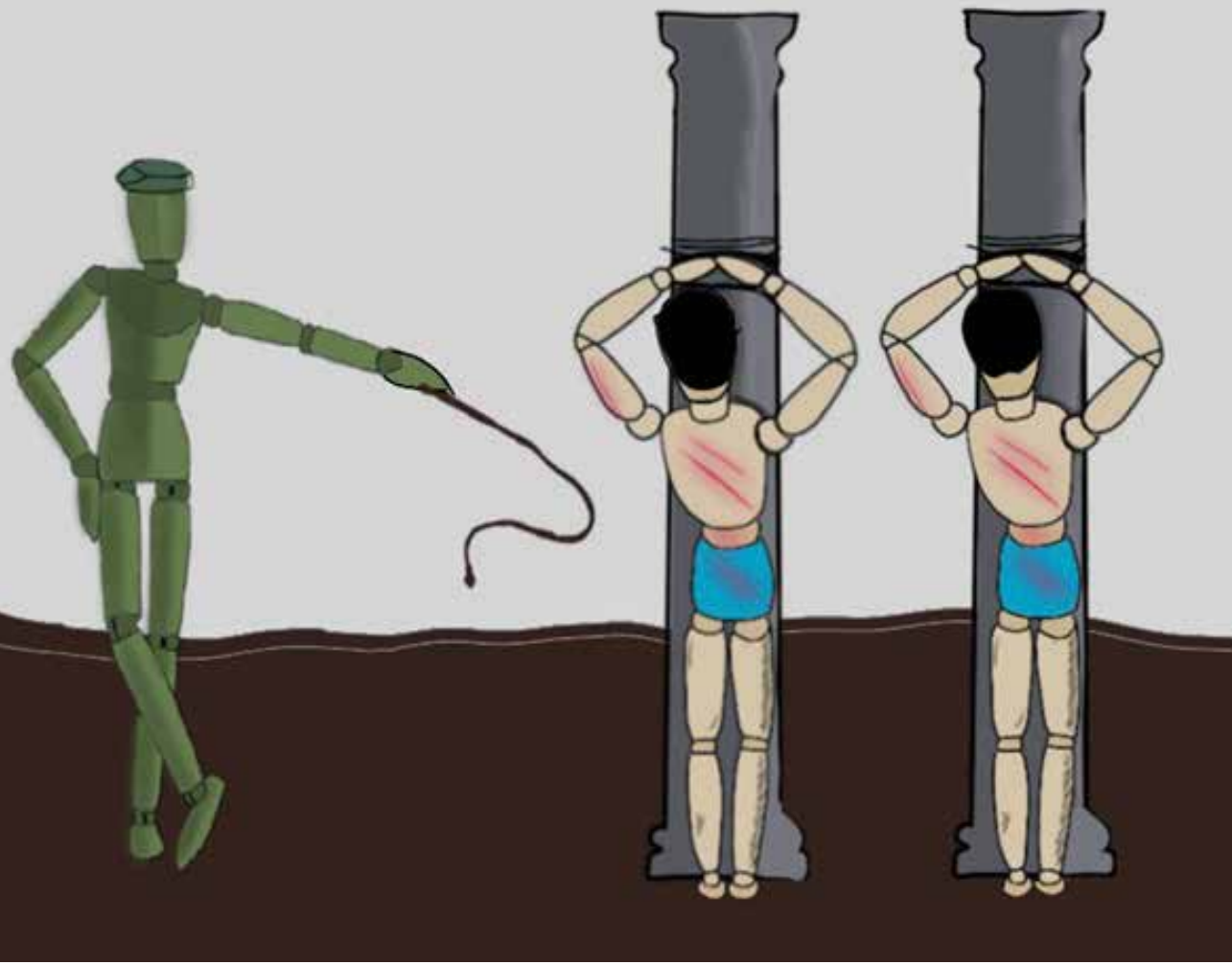
رجال السلطة، انهالت عليهما قطعة مطاطية سوداء من يد يُمْنى لا تَكْدُ ولا ترحم. الجلاد كان عملاقاً للغاية، عرفتُ بعدها أنه رجل السلطة في مهمة عقاب السجناء، ينقص هذا المشهد رجل دين ليعد السيئات والحسنات، ونحن السجناء نتفرج بلا شعور، لم نحزن ولم نفرح، ربما يفرح مَنْ في قلبه بغضاء من السّجين، كالشيطان مثلاً.

لم أرَ ظهر السجينين جيداً، كنت أريد إجابة سؤال: هل يترك السّوط خطاً أحمر، لربما أكون مكانهما يوماً من الأيام، ولكن بعد ذلك، تغاضيتُ عن أمر المعرفة، لن أكون مُتفلّكاً.

يُقال أن سجيناً ثالثاً هو الذي أبلغ رجلاً من السلطة عن فعلتهما، لم أكن أعرف الفعلة، لماذا لا يكبتان شهوتهما، وأي شهوة، شهوة الرجل للرجل.

بعد أن هُشَّ الخراف داخل الزنازين، بقي سجين واحد ليُضاجعه صاحب العصا من الخلف في حَمّام وسط ثماني حمامات، ولكن فُتح عليهما الباب وأخذوا وسط ضجيج دَوّ، يُحكى أنه مثلي، يشتهي الرجال. يُقال أنه لم يكن كذلك، ولكنه تعود على لمس مؤخّرات الرجال عوضاً عن نسيانه مؤخّرات النساء. بعد أن نال عقابه، ونُقل من السجن نهائياً، أي نُفِيَ إلى سجنٍ آخر، سمعنا أنه كان يُسهّل على السجناء معيشتهم مقابل أن يتركوه يلمس أجسادهم في أوقاتٍ عِدّة.

قلتُ في بالي مُستَتراً: يجب أن تتحكّم السلطة في شهوات سجنائها حتى لا يفعلوا فعلتهم، لو سُربت تلك الحادثة، ماذا يُقال؟ أن السّجن



الفلانيّ سجناءه يُضاجع بعضهم بعضًا، هذه سقطة أخلاقيّة في حقّ رجال السلطة، وهم ذوو الأخلاق كلّها، والسجن تهذيب وإصلاح وأجساد وشهوات. لا بد أن يعطونا شيئًا يُجمّد حيواناتنا المنويّة، بالكاد عمليّات الإخصاء الجراحيّة ستُكلفهم كثيرًا، شرابٌ مثلاً كزيت الخروج ولكن أشدّ مفعولًا، يُساعدنا على عدم إيقاظ قُضبنا وإبقائها مكشوشة لحين الخروج من السجن، وحتى لا تتمدّد وتأخذ مساحةً نحتاجها للعيش سويًا. تخيّل رجلًا قضيبه مكشوش لمدة ٢٥ عامًا، شيء مُريح، لكنه سيكون حزينًا عندما يتعرّى ويراه هكذا. هو رمز رجولته ولذلك يجب أن يراه ناضجًا دائمًا.

بَيَضَاءُ فِي الْأَصْلِ

الراقصة

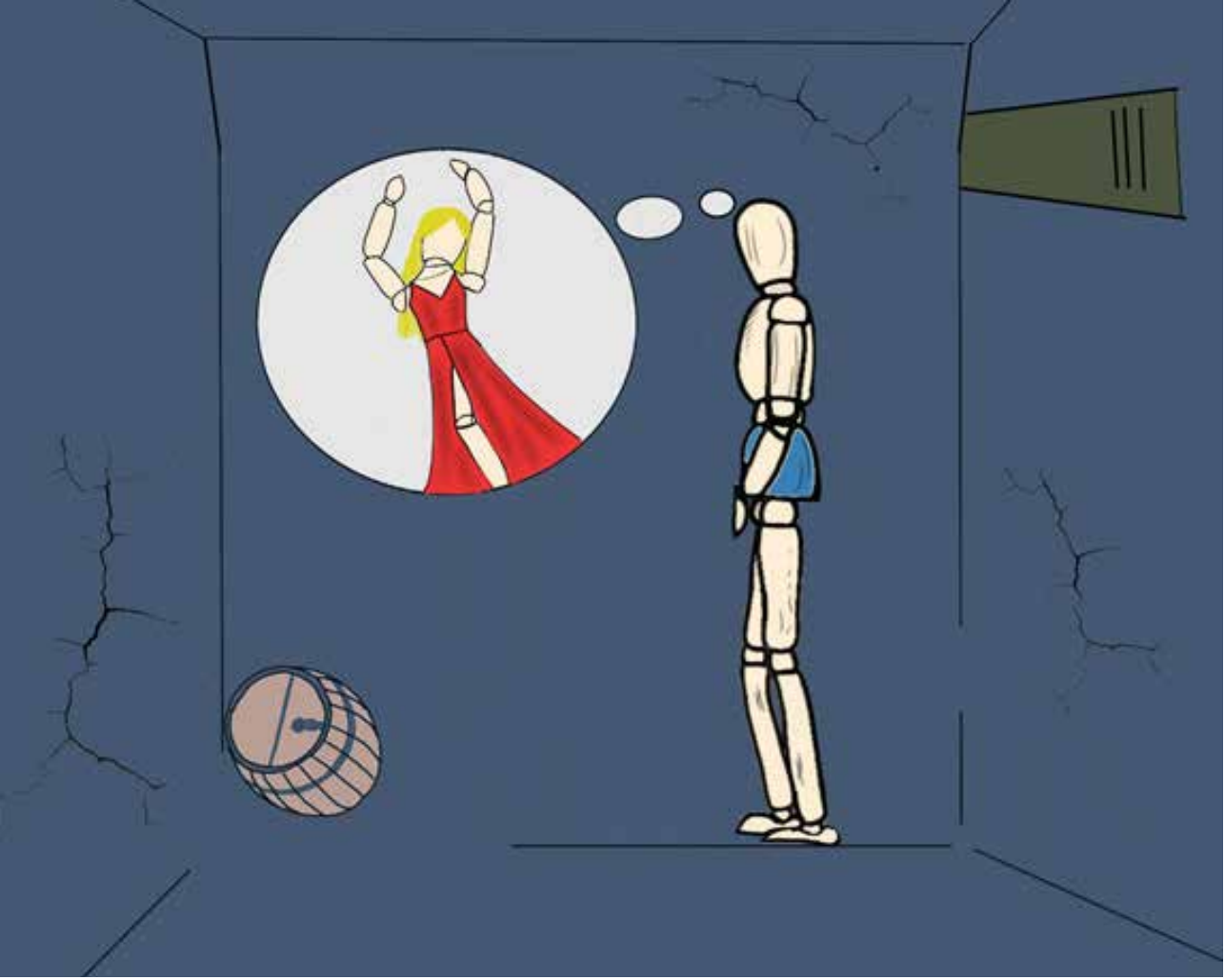
حاولت أن تهرب مِنِّي، وكأنها تغريني أكثر، كأَيِّ امرأة تحب أن يتشوّق إليها حبيبُها، خصوصًا إن كانت امرأة فاتنة في وسَطِها الفنِّي، وفي وسَطِها الجسدي. هي فنانةٌ استعراضيةٌ، راقصةٌ بالمعنى الشرقي، وجميعنا يعرف أن الراقصات يُحافظن على قوامة وجاذبيّة أجسادهنّ، هي أكبر مِنِّي عُمرًا، ولا سابق معرفة ولكنّ الحب والاشتياق والشهوة جمعتنا، لم أكن أحلم أن المرأة التي لم أرها إلّا من خلال الشاشات وأوراق الجرائد، سأجري وراءها وأداعبها في رقبتها وأقبلها وأشياء أخرى... ولكنّي حلمتُ بالفعل!

هنا الغفوة، قضيبي واقفٌ ولكنّه ابتلّ من استِمنائه، لم أستطع التحرُّك، كنّا صباحًا والجميع نيام، ولا مجال حتى للتقلُّب يمينًا أو يسارًا. مرّ الوقت وغفوتُ مرّةً أخرى، ليفتح صاحب العصا الجديد البابَ لنا ونخرج. هو رجلٌ طويل وضخم جاء لنا من عنبرٍ آخر، يهشُّ الناس بهدوء، ولكنّه إلى الآن لم يُضاجع أحدًا من الخلف، من فضل القدر عليّ أني لحقتُ حمّامًا فارغًا، وهو الحمام رقم ثمانية، دخلتُ، وقرفتُ للتخلص من فضلاتي العفنة من ليلة أمس، لم أعتلّ كثيرًا، جسدي تعود على ميعاد التبرز، تلقائيًا وسط

ضجيج السجناء تقوم العملية بنجاح. وقفتُ وخلعت ملابسِي كلها، لم يكن أمامي أحد ينتظرني وراء الباب، عندما رأيتُ رمز رجولتي ناهضًا، تذكّرت ليلة البارحة، بكل ما فيها، ولا يوجد فيها سوى جسد الفاتنة الذي أعطاني مُتعةً جنسية كبيرة، خيالي ذهب إليها مرةً أخرى، دون نوم، جسدي يحتاج جسدها حتى يخرج ما بداخله. في خلال دقيقتين كنت أفرغتُ بيَميني مرةً أخرى، تطايرتُ منوياتي على الحائط والأرض، لا يوجد جسدٌ سوى جسدي، ولا شهوة سوى شهوتي، الراقصة في بيتها أو حتى في أحضان مَنْ اختاره القدر. صوت المياه بدأ يُذكرني بالوقت، اغتسلتُ بعدها جيدًا، وارتديت ملابسِي ثم خرجت، ليدخل مَنْ هو في الانتظار.

ماذا لو؟ دخل عليّ أحدٌ ورآني. سؤال يراودني خِفيّة؟ يُخيفني أحيانًا، ما عقوبة استِمنائي؟ الجَلد؟ ولكن لماذا يُعاقبونني؟ أنا أضاجع الخيال، لا أضاجع شخصًا آخر، ربما يُفَلِّكوني على عمودٍ رماديٍّ خَرَساني صلب، والعمود الآخر يظلُّ فارغًا. ويقولون للجماهير أنّ العمود الثاني مفلوكٌ فيه خيالي لأنني ضاجعته، أو يسألوني مَنْ ضاجعتَ في خيالك؟ فأجيب: الفنّانة الفلانيّة. فيأتوا بصورة لجسدها ويلصقونها على العمود الآخر، ويبدأوا بجلدنا، ويتسرّب الخبر في الصحافة والإعلام، سجينٌ يضاجع الفنّانة العلّائيّة في خياله، فما موقف الفنّانة عندئذٍ. أعتقد أن جميع الشباب هنا يستمنون، أظنُّ أن منوياتنا تخرج على الفنّانة الواحدة في اليوم الواحد، يجب أن نُصارع بعضنا، أن نُجدول راقصاتنا حتى لا نُضاجع امرأةً واحدةً جميعًا.

لم أكن أعرف أنّ هذا الجسد عَقبةٌ لي، يبدأ بإذلالِي عندما يقع



في أيدي السلطة العقابيَّة، سبب ألمي وحقارتي وحزني وضيقني
وانضباطي وأسري وتحكمهم فيّ.

لحظة. ماذا تفعل النساء في العنبر المجاور لنا، هن شابات
يحتجنَ لما نحتاجه نحن الرجال، المأساة بالكاد واحدة، هل
يتحرشنَ ببعضهنّ، رأيت ذلك في جميع الأفلام السينمائيَّة التي
جسَّدتْ سجون النساء، رأيتهن يلفظنَ السُّباب بلا حرج، ويرقصن
ويستعرضن أجسادهنّ، هل يُطبَّق عليهن عقاب السجن عند الوقوع
في فخِّ المِثليَّة مع بعضهنّ. ربما سأعرف يومًا، بقي لي في السجن

شهور طويلة، ولم أحقق خُطَّتِي لنيل منصبٍ أستطيع من خلاله أن
أخرج من هذا العنبر وأرى السجينات على مسافةٍ أقرب، ربما تُتاح
لي الفرصة للتعرفُ على إحداهن، وتحكي لي كيف يعيش النساء
داخل عنابرهنّ.

بُرج سبعة

سألته: أين هو اليوم؟ يا عمّ العسكري. ودندنت: يا حارسي وسط ليالي، ويا مراقبي في نهاري، موتك هو حياتي، أتمنى أن تموت! أتعرف؟ أستطيع أيضًا أن أقول أنك صديقي، وتُشبهني كثيرًا في قيدي، أي نعم أنت صديقٌ مُزعج، لا أقصد صديقًا من باب التّقاء الودّ، بل من شبّاك بُرجك. أنت مُقيّد ولكن بزيّ ميريّ سلطويّ، وأنا صامت وأنت مُزعج، تصيح حتى الصباح عكس الديك، يا أخي دعني أفكر ساعةً كاملةً دون صوتك، أو حتى أنام بعيدًا عن سيمفونيّاتك، أخذتُ ليالٍ كثيرة حتى أعرف أنّك تقول: «بُرج سبعة تمام»، وأوقات تتعالى بالقافية «مَحَدِّش هِنَا بِنَام».

أريد أن أتعرف على شعوره وهو ينادي، وهو ينتظر حتّى ينادي، نحن في أول الليل حتمًا سأسمعه، هو ليس شخصًا واحدًا من الأساس، هو يتبدّل باستمرار، وأنا لا أعرف سوى صوت يقظته.

تأمّلتُ، ورأيت نفسي أفضل شعورًا ممّن حولي من عجائز الأجساد، هم يصمتون كثيرًا، وأحيانًا يكون، الجسد يهلك وراء الحديد، يتآكل، ويُعَفّن دون شمسٍ وهواء، والوحشة للأرواح الطيبة تُدبّل الأرواح،

وهذه الليلة قاسية، حتى في رائحة أنفاسها، فمُنذ ساعتين، لم يستطع براز أحدهم أن ينتظر للصباح داخل أمعائه، فقرّص الرجل بجوار البرميل، هو عجوزٌ سِتّينيُّ أتى بكيسٍ أسود، وغطّى به علبةً صغيرة، ووضع العلبة تحت شَرجه، لعلَّ برازه يدخل دون خطأ، صوت عتالته كان خفيفًا، عنده إسهال، انتهى ولفَّ الكيس بأصابعه ووضعه مع أكياس البول المُختلطة، لم يحدث أي خطأ سوى أننا هنا. عرفْتُ هنا قيمة الجسد بقدر ما عرفت أنه سبب غُلْبنا، ولكنَّ جسد عن جسد يَفرق في كمِّ الغُلب، فجَسد الشاب يستطيع تحمُّل البراز للصباح، والجسد الكامل أفضل من الجسد المبتور.

سبُّ الدين تعالى صوته، صرخ له قائلاً: «انزل هنا.. نايم؟ والله لَحِسَّكَ يا ابن الزَّانية يا خول». والمزيد من الشتائم أطربت أذني، هذه المرّة ككلّ مرّة الشَّتائم هو الضابط، السلطة، ولكنَّ المشتوم أيضًا هو السلطة، عسكريّ برج سبعة الذي لم أسمع صوته، والذي لم ينم أثناء الخِدْمَة إلّا هذه الليلة. رأيت صديقي وهو يُشْتَم ويُتوعَّد بالسجن، فرحت فيه، لأنّه يزعجني كلّ ليلة، ويُدْغِرني بالمراقبة، غفل عن جُنْدِيَّتِهِ وأصبح سجينًا، نعم لن يُحبس مدّة طويلة، أسبوعًا أو أسبوعين، ولكنّه سجين.

تذكَّرتُ قصة بناء جيش مصر الحديث، كان الأتراك والألبان يقبضون على الفلاحين المصريين ليُصبحوا جنودًا، فيهرب الفلاحون من معسكرات التجنيد، فيُعَيَّنون عليهم حراسًا، فتهرب الحُراس، وهكذا، تخيّل لو هرب جميع الحراس، لن يتبقّى سجينٌ واحد، ربما الشيطان سيُفكّر قبل أن يخرج، سيُواجه عقباتٍ كثيرة، سيَزِدُّ عدد مَنْ سيَقول له: يا شيطان.

ألوان

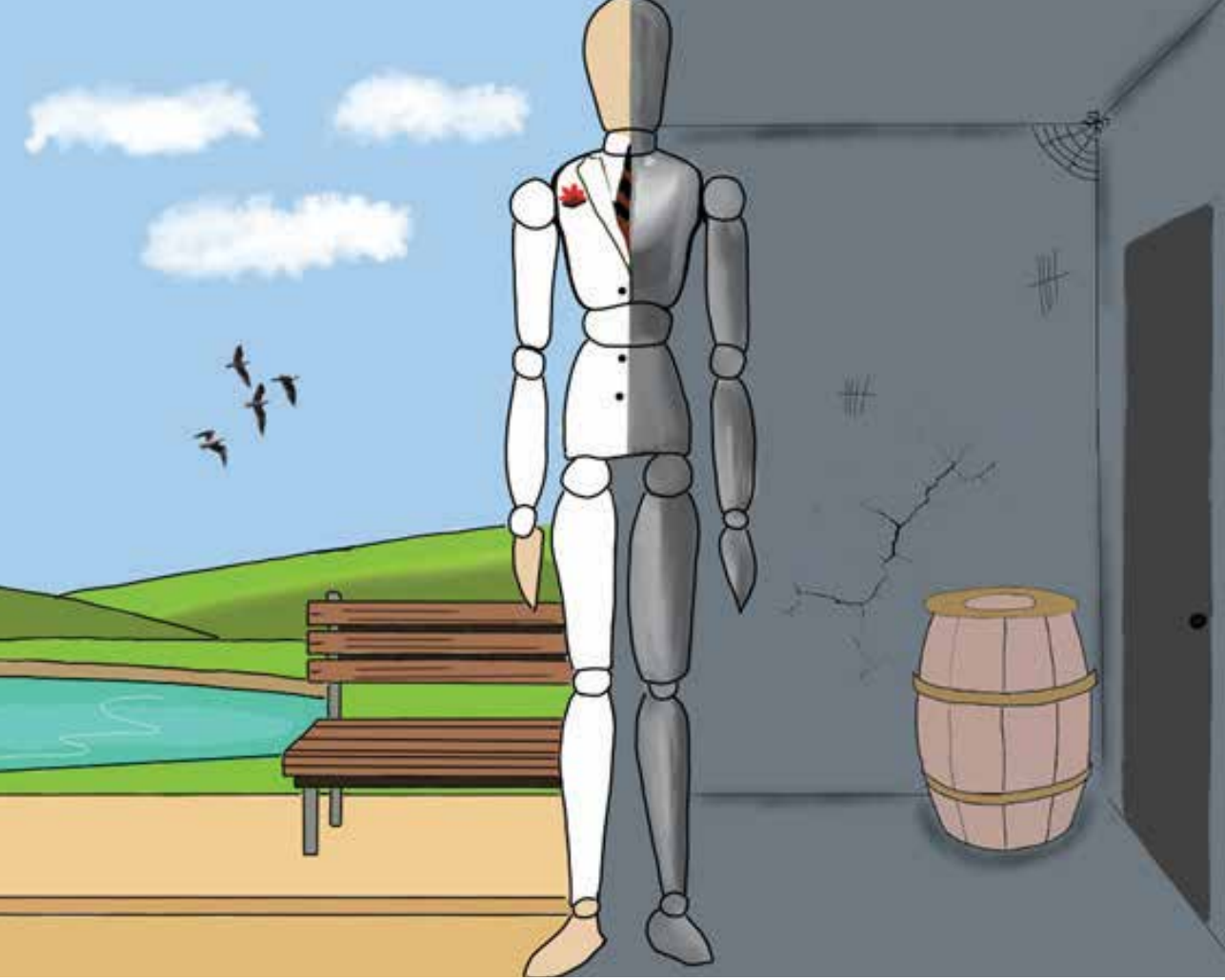
هذا الرجل ضخمٌ للغاية، مِن أين أتتْ به تلك السلطة؟ من الممكن أَنَّهُ كان يعمل مُوظفًا عاديًّا، ولكن اكتشفت السلطة أَنَّ مثل تلك الأجساد الضخمة تنفعها في العقاب، لذلك أتتْ به. دَعَكَ من الأساطير التي تُقال عنه مثل أَنَّهُ يأكل خمس دجاجات وخمسين بيضة في اليوم الواحد، ربَّما تكون صحيحة، هو هنا مُخصَّصٌ لاستقبال السجناء في البداية، وعقابهم عند التأديب، يضرب السوطَ باستمتاع. وجهه أسودٌ غليظ، كيف يُعامل أطفاله في البيت، هل يجلد زوجته عند المشاجرة، أم أَنَّ الوحش الذي نراه الآن ينام في بيته وسط أطفاله، ويستيقظ وسط السجناء فقط، ربما كذلك في كلِّ إنسانٍ مِنَّا إنسانٌ نائمٌ يستيقظ في حالات الإثارة التي تُوظفها السلطة. من المؤكَّد أن السلطة هنا وضعتْ له المثاليَّة العليا في تنفيذ القانون للحفاظ على سلامة وأمان النظام، المثاليَّة هنا في جلد أجساد السجناء وانضباطها والتحكم فيها وإخضاعها، بل وتصغيرها لكي تنام في ثلاثين سم مربع مثلاً.

لم أكن أعرف أَنَّ السجين الذي يرسم على جسده يُعاقب، هذا الرجل المفلوك أماننا رَسَم كلماتٍ وخطوطًا على كتفه وقدمه،

هو ظنُّ أن حرّيته فقط هي ملك السلطة، لا يعرف أن جسده منذ دخوله بوابة السجن أصبح ملكاً للسلطة أيضاً، تفعل فيه ما تشاء، تقول له تبرّز فيتبرّز، تأمره بالركض، بالتعريّة، بالنوم المُكوّم، بعدم الاستمنا، فيفعلها خفيّة، تُطعمه كيفما شاءت وبالكَم الذي أرادت، تُحاول إبقاءه بلا أي رسوماتٍ سوى خط السّوط عند العقاب الذي يذهب مع الوقت، أو كلمة السجين عند الزيارة، هكذا تفعل السلطة في جسد سجينها.

قلتُ في عقلي: اخرس الآن. الخرسانة مُحيطَةٌ بي، تُغطّي العمران، هو أقوى مِنّي، كلّما نظرتُ إليه شعرتُ بالضعف، هو صلبٌ، أسمنتٌ لونه أسود ورمادي داكن، لماذا لم يُلَوّنوا تلك الأبنية بالأحمر والأخضر مثلاً. اللون عندهم جزءٌ من العقاب، تريد السلطة مَحَو الحياة الدنيا من ذاكرة السجين وكلّ ما يتعلّق بها من ألوان وملابس ونوم وأكل واستحمام، تريد أن يعرف السجين أن هنا سلطة عقابيّة لا علاقة لها بالدنيا، أو لا علاقة لها بالحياة الطبيعيّة لابن آدم، هي حياةٌ من نوعٍ آخر، نستطيع أن نُسمّيها حياة الكائن الحيّ الاستثنائيّ التي أصبحت طبيعيّةً مع التعوّد.

كلّ السجناء مُتشابهون، أصبحت حياةً صامتة، ولذلك عندما استمرّ صريخي لمُدّة شهرٍ كامل، أخرجوني، لا يريدون العيش بضوؤنا، من وجع أسناني كنت أصرخ، عصبِ ضرسِي تآكل، أتمنّى لو ينفجر نافوخي ويسكن هذا الألم. خرجت إلى عيادة السجن في الصباح، اصطحبني رجلٌ من السلطة، وقال لي: بقي لك شهرٌ كاملٍ مِصدّغنا، اخلع ضرسك اليوم ولا تُسمِعنا حَسَك مرّةٍ أخرى، جاوبته بالتمام، وردّدتُ بعض الجُمْل كي يفهم أنني لا أريد الإزعاج. بالفعل خلع



الدكتور ضرسى وسط آخر صرخاتي، ظلّ صامتًا ورشّ لي بعض
الكحوليات مكان الخلع، وقطنة في يدي لحبس تدفّق الدم، انتظرتُ
ساعةً حتى يُكْمَل خلع ضروس بقية مَنْ معي.

رجعنا جميعًا مُصطفّين، لا نسمع إلا صوت تدريب عساكر كتيبة
معسكر الأمن التابعة للسجن، لا أعرف على ماذا يتدربون، ينادون
ويقفزون ويجرّون، ربما يقصدون إيصال رسالة غير مرئية لنا،
مفادها أنّ عدد رجال السلطة هنا كثيرٌ جدًّا حتّى وإن لم تروه،
وأنّ السلطة جاهزةٌ لضبط وإخضاع مَنْ يحاول التغريد خارج سرب

قانون السلطة التي تراه هي بعينها وليس القانون الذي تكتبه باتفاقٍ مع أي جهةٍ أخرى.

بقيَ لي القليل كي ألُوّن ملابسِي بلونٍ غير الأزرق، الأزرق هنا سيكون في السماء فقط، وربما في عيون الجميلة التي سأزوّجها، وليس في أجسادنا، سأرتدي ملابس ملكيّة بألوان مختلفة، ربما أشتري البنطال أسود، والقميص أخضر، اللون الأسود يُذكرني بباب الزنّانة، ولكنّ باب الزنّانة وقتئذٍ لن يكون في ذاكرتي ضمن حاشية الأعداء، بل سأندكّره عندما فُتِح لي لآخر مرةٍ لأخرج منه إلى الحياة، وبذلك سيكون صديقي. ولكن بالمقابل عند غلقه، أُغلق على آخرين، سجناء تُعساء، يعيشون سنوات بلا حياة وبلا موت.

باب الحمام سيكون مُكتملاً، لن يُعرّي أسفل أو أعلى جسدي للمنتظرين، لن يكون في الأساس منتظرون، سأجلس على قاعدة الفضلات الرخامية، لن أعتلّ، فإن لم أُخرج فضلاتي الآن فبإمكاني إخراجها في الوقت الذي أريد، لن أغتسل بيدي، سأقلّب في مساحة جديدة، تصل إلى ٣ أمتار من القطن والقماش الناعم على سريري، سأنتقل من حياة الثلاثين سم إلى حياة الأمتار الواسعة، مرّاتي ستساعدني على التعرف على نفسي من جديد، فقد نسيْتُها.

سأبحث عن امرأة أنزوجهّا، مُشتاقٌ أنا لرؤية النساء، أخرجتُ مَنويّاتي كثيرًا خلال السنوات الماضية، في أقمشة ملابسِي، وعلى حوائط وأرضية الحمام، حتّى في عزّ نومي وأحلامي وفوقاني. لن أحزن إن لم تأت لي الراقصة في خيالي، فقبل أن أنام أستطيع أن أذهب إلى مسرحها، وأرى جسدها أمامي دون خيالات، سأكون

وقتها مُحَرَجًا جدًّا، ربما هي لا تعرف كم قضيتُ أوقاتًا سعيدة معها، وإلى الآن الكثير من السجناء يقضون معها تلك الأوقات، سأوشوشها في رفق... أنَّها نائمة الآن في خيال السجناء، وهي سبب سعادتهم، سأحكي لها عمًّا فعلتُ، ربما تعذرني، ليس لديَّ بديل، بل فضَّلْتُها عن الكثير من النساء المحفورات في خيالي... هكذا كان الأمر فقط.

خارج السجن لن أشعر بالضييق من جسدي وحاجاته، كما أشعر الآن. الآن انتهى الأمر، ذاهبٌ أنا إلى ما تمنيت... أمامي مشهدٌ اشتباكيّ، أجساد رجال العقاب والسجناء، لا أعرف مَنْ يضرب مَنْ. العصيُّ في الأيدي، والأمهاتُ الزانية والوسخة تتطاير في الهواء خارجةً من الأفواه. قد ثار السجناء، امتنعوا، رفعوا رؤوسهم، تذكَّروا أنَّهم أسماء، نسوا الأرقام، لن يتبرَّزوا أمامهم مرةً أخرى، لن يرقصوا على المسرح، حافظوا على استباحة مؤخراتهم، أجسادُ ذويهم أيضًا لن تُستباح بعد الآن. جاء جنودٌ بلباسٍ ميريٍّ مُكتمل، جنودٌ كُثُر، خوذات وعصيٍّ أكثر سوادًا، وأجسادهم أكثر مرونة، الاشتباك فُضَّ، أُسِرَ السجناء مرةً أخرى، انبطحوا عنوةً، وصارت أجسادهم مَداساتٍ للجنود. انتهى الاشتباك، في بالي. أسرع... أسرع، أنا خارجُ الآن، دع الوقت يمرّ، لا تتباطأ بحُجَّة الأوراق والإجراءات. كلبش يدي، أوصلني سريعًا إلى العربة الزرقاء، أريد أن أُطلَّ على العالم مرةً أخرى، انتهى دوري في هذا العالم، هي مسرحية، صَفَّقوا لي وأخرجوني، انتهى دوري، ولكنَّها كانت بداية جديدة.

بَيَضَاءُ فِي الْأَصْلِ

Whether indeed a novella or a masquerading testimony, this publication, the sixth in the MENA Prison Forum Log series, continues to put forward that prison is not just a general abstract idea, an “experiment” to be theorized upon, but an ordeal that indelibly changes all those who experience it.

All This is Prison Also...

Swaying Bodies, contrary to other texts that address carceral systems, does not present an analytical nor theoretical analysis of the prison “experiment” but instead contents itself with the storytelling of an experience.

The author Ahmad Abdul-Halim is an Egyptian writer and researcher born in 1995 whose contributions have been published in various media outlets. He insists *Swaying Bodies* is a work of fiction: nonetheless, it leaves the reader with strong feelings of unease.

The description of the narrowness of the cells and the sardine-like piling up of the inmates makes the reader feel like the space around them literally shrinking; the description of the various ways in which the inmates do their business causes the reader visceral disgust; the description of the inmates' sexual frustration and the ways they resort to relieving themselves all compels the reader to ground his body to reassure himself that he is not directly involved in the scenes playing out in the text. The illustrations by Dima Daly, a Syrian activist and painter born in 1997, additionally stress the images evoked by Abdul-Halim's writing.

Abdul-Halim can claim as much as he wants that *Swaying Bodies* is a work of fiction, but this does not necessarily convince the reader, who is unable to stop wondering as he reads the vivid descriptions of the prison from where the author was able to get the forensic minutia and detail in describing the prison.



www.menaprisonforum.org | www.umam-dr.org



MENA PRISON FORUM

[A project by **UMAM D&R**]

MPF LOGS [6]

Beirut 2019/2020

Tel.: + 961 1 553604

P.O. Box: 25-5 Ghobeiry

Beirut - Lebanon



The views expressed herein are solely the responsibility of their author and of their publisher. The contents of this publication do not reflect the opinions or organizational perspectives held by the Institute for Foreign Cultural Relations (ifa).

This publication was produced thanks to financial support from the Institute for Foreign Cultural Relations (ifa), which is funded by the German Federal Foreign Office.

Ahmad Abdul-Halim

SWAYING BODIES

Novella

INTENTIONALLY LEFT BLANK

INTENTIONALLY LEFT BLANK



MEN A
PRISON
FORUM

مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلشُّؤْنِ السُّجْنِيَّةِ

SWAYING BODIES

Novella

Ahmad Abdul-Halim

LOG VI